راعي تليم

هـذا الـوطـن شـامـخ ولا يلـحقـه ضيـم
نمـوت دونـــه مـــا يـدنّـس ترابـه
دونـه مـداغـيـش الـعـيـال الشـغـامـيـم
خـراب دار الـلـي يـدوّر خـرابـه
مـن دون حـدّه مـانـعـرف المفاهيـم
تجـهـل ولـو نملـك عـقـول وخـطـابـه
صـحـيـح دون مـقـدسـاتـه مـوالـيـم
والـلـه مـشـرفـنـا بـمـكـة وطـابـه
لـكـن «وطـنـا عـرضـنـا» مـابـعـد سيـم
كـلّـه مـقـدّس مـن سـمـاه لـرحـابـه
فـضـلـه عـلـيـنـا مـايـقـابـل بتحجيـم
مـايـجـحـد الـمـعـروف رجـلٍ نشـابـه
حـتـى الـغـريـب الـلـي عـلـى حـدّه مقيـم
يـديـن لـه بـالـفـضـل لانّـه سـعـابـه
يـكـنّ لـه حـب ومـعـزه وتـعـظـيـم
ومـن الـوفـا مـابـاع بـه واشـتـرى بـه
يـاظـالـمٍ نـفـسـك وفـي غـيّـك تـهـيـم
فـعـلـك سـؤالٍ مـا لـقـيـنـا جـوابـه
وشـلـون وانـت ابـن الـوطـن، والـوطـن ديم
قـد عـل عـودك لـين مـازهـر شـبـابـه
بـدال مـاتـهـديـه مـجـدٍ وتـكـريـم
تـجـزيـه بـالـنـكـران.. يـا لـلـغـرابـة
الـيـوم عـقـلـك فـيـه خـفـه وتـعـتـيـم
وابـعـدت عـن نـهـج الـنـبـي والـصـحـابـة
وسـلـكـت درب اهـل الـقـلـوب المجاهيـم
حـتـى انـهـم جـرّوك صـوب الـخـرابـة
طـاعـة ولـيّ الأمـر عُـرف وتـعـالـيـم
والـلـه مـقـدّرهـا بـمـحـكـم كـتـابـه
وشـلـون مـن لـلـديـن صـاروا مـقـاديـم
«ال الـسـعـود» اهـل الـشـرف والمهابـة
لـهـم الـوفـا مـنـا عـلـيّ الـمـلازيـم
وانّـا لـهـم وقـت الـشـدايـد عـصـابـة
عـهـدٍ عـطـوه جـدودنـا راعـي «تـلـيـم»
مـا دامـنـا حـيّـين حـنـا زهـابـه
والـلـي تـعـب صـوتـه وهـو يـرّقـب الـغـيـم
يـبـي يـمـوت ولا درت بـه سـحـابـه

نهار بن ممدوح

بروفة حياة:

«سامحت بيك الزمن»

وهكذا كان... في زمن الفقد

هذا الزمن الذي أدركت ساعة أظلت، وما بيني وبيني فضاءات من غيم، وجليد، وفقد. أتشظى وحدة وقشعريرة، أشبه ما أكون بالطائر العطش البردان، أدركت أنها ضربت موعدا للصبح على عتباتي، وأن الزمن تغافلني وترك بابه مواربا لطائر الفينيق ينطلق من الرماد، فربما انكسارات الثقة المتعاقبة على قلب لم يعرف سوى البياض، في محطات عمر لا تشبهه، ولم تحتفظ بها ذاكرته.

قلب بلا ضفاف.. استبدل كوابيسه بالعمل، ولم يبرح خاطره: متى أرحل لذاك الغياب الذي رحل إليه الأقربون؟ ولم يعرف حتى اللحظة مدية السؤال: الحميمون.. كيييف باعوا!!! فاستدار بكبرياء معتما في الغياب، واعيا أن بعض الأسئلة إجاباتها دماء، بينما العمر يعدو، لا وقت لأي شيء، ولا وقت حتى للبكاء.

تطامن الأسى، وتطاول عباد الشمس بين وجعي وسنابل عمري، وأنا أطوي الحياة وتطويني.. على قلق ودون هوادة، يهجس قلبي: إنتظفاااا... ويدها الصغيرة تخط: شرووق. لم يدر في خلدي أن طوق النجاة هي طفلتي المهيبة سارا، التي اغتابتني الدنيا بمقدمها وقلمت ضفائرها، سارا التي لا تعرف سوى المشي في الضياء، والتي فردت أجنحتها ناثرة الماء.. على يابستي.

ما أمارسه الآن هو «مونتاج».. وفاء لضوء تغافل خيباتي وغيري، ولزمن سيظل لي فيه انتماء حقيقي، وحلم.. وصلاة.. مذ كانت في الثانية، ما أن تسمع صوت الباب حتى تتراكض أقدامها على الدرجات فاتحة ذراعيها في احتضان يفيض من نبرات صوتها محملا بمطر من أغنيات وبلل وربيع: ماما!!!!!!!!

لم تكمل الرابعة بعد، لكنها صاحبة رأي، تتشارك ملامحها ويديها في التعبير بيقين لا يتسرب إليه الشك، وحين أدعوها لخفض صوتها، تتوارى فلا ألمح منها سوى انحناءة ظهرها وأطراف أصابع قدميها مقلدة مشية « بينك بانثر Pink Panther »، أحبس ضحكتي وأنا أضع سبابتي على شفتي: « أصصص ».. خشية أن تفاجئني وتسترق النظر إلي كعادتها!

غبت وأخيها يومين، تلقفتنا فيها حوائط المستشفى الباردة كحوائط الدنيا، بل ربما كانت أكثر دفئا من قلوب توهمناها ملاجئ، لنا فخذلتنا.

أطبقت الوحشة على صدورنا ونحن نتأمل المرضى وعيونهم مزيج من الوجع والامتعاض، فكانت عيون الكادر الطبي الآسيوي أكثر حنوا من عيون توغلنا في معرفتها وما عرفناها، عيون أشعرتنا أن بعض الغرباء وطن.. ومنفى!

حين عدنا، احتضنتني برحابة الكون كله، تسير وهي تلتقط أجزائي تقبلها وتحتضنها وتمرغ وجهها فيها.

إنها الصحوة، تتقاذفني وأخيها على كرة اسمها الفرح، «فهد».. قمرنا الذي يرشقني بأسئلة لا نهايات لها، متعللا إلحاحه بـ: «أنا أحب أسولف.. أحب أعرف»!! والذي لا ينفك يمارس متعته الأبدية في عمل المقالب وتجميد الدماء في عروقي حتى إذا رأى انهياري اعترف بما يخبأ وعلل صمته بـ: سر! سر! كيف أقول لك.. ما صار سر هذا!!

كانتا تناديها: تعالي

لو كان «التركيبي» تحتاج إلى إعادة تعريف، فحين يضج عقلي بكثرة الأعمال وإتجه صوب وكري الغاص بفوضاي، تتشبث بأطراف ثوبي بينما الوقت يسرقني من عبث الصغار، أكتم عصبيتي التي خلقها زمن لم يراعي للأنقياء حرمة، أجز على أعصابي التي تفور، فترد بدلال: لا... لا.. لا.. أنا أحبك ماما.. شوية بس.. شوية.

تتسارع خطواتي على الدرج وأقدامها تتراكض معي:

- وأنا أحبك حياتي.. بس ماما مرة مشغولة.. اتركيني الآن

تمد شفتيها: لا.. لا.. بيوسك بس.

أحتضنها وأقبلها، فتتراقص خطواتها حقول ياسمين وماء، وتمطر سمائي، ليتني أضمهما العمر كله، فلا تدميهما الدنيا بأشواكها وبردها وخيباتها التي تنحت الروح، ليتني أغرسهما أكثر في تربة لا تقبل زرعا لا يتنفس الحرية ولا يحترم الإنسان!

وحين نجتمع نحن الثلاثة، تضع إحدى ذراعيها على كتف أخيها والأخرى على كتفي، وكالريح ترشقني بعباراتي التي نفحتها في أوردتهم: ارفعي راسك فوق.. ماما صديقتي.. الوطن.

يتلو فهد بدوره: ارفع راسك فوق.. ماما صديقتي.. الوطن.

أحتضنهم مرددة: إحنا.. إحنا... ؟

يرددا بصوت عال وهما يتضاحكان ويتسابقان في نطق الكلمات.... أصدقاااااء... الوطططن.

هذه هي سارا الأكثر تجذرا في النبض من كل شيء، والتي تترك بصماتها على كل شيء، وحيث «برساد» السائق الهندي الحديث عهد بالغربة، يستقرأ ما حوله ببطء يكاد يخرجني من هدوئي، فأنسحب داخلي فرارا من ضجيج السطح، متعبة من ملح أرغفة الحياة، وناجية من خديعة الصداقات الأبدية، والتي أجاهد ألا ألم بنشيجها وذوبانها، حين تحتضننا الأزقة، تنظر نحو برساد وحيدا، نظراته ترف بالشرود في الضفاف البعيدة، تمد كفها الصغيرة تحتضن كفه وتسير به.

فمن علم هذه الصغيرة الخرافية كل هذا الحب! سارا التي تغطيني بعد أن تقبل كفي وجبيني إذا مرضت، والتي تسارع لإحضار كوب ماء لو «غص» أخيها، تسقيه ثم تمسح آثار الماء التي تعلو شفتيه!

الآن تتثاءب الريبة وتتداعى الظنون، يلسع الروح كلما قدت من دبر بسذاجة الحميمين، مكتفية بحزن لا أقتلني أبرأ منه، يمشي على جمر غرة، أنتشي معه وسادة النوم المضطرب والغيب فحزني.. لم يعد يعنيني، ولازلت أحيا بعد طعنات القاتلين.. بغير ما أسماء.

عادت رائحة الفجر، صوت العصافير تكبة تغتاع.. ملأ الفضاء، انبسطت سمائي شمس صريحة وفرح خفي، ما مضى من العمر لم يكن سوى رماد بددته الريح، ثمة وقت فلا وقت، أدرك الآن وأنا أستعيد بهجة الألوان في عينيها، أن كل ما مضى... لم يكن سوى « بروفة » حياة.

سلام عبدالعزيز
كاتبة وروائية سعودية